

ا.د.سعاد هادي حسن الطائي
تاريخ العصر العباسي المتأخر
المرحلة الرابعة

عنوان المحاضرة:الأصول التاريخية للمغول
وموقف الخلافة العباسية منهم

تناولت الكثير من الروايات التاريخية الاصول التاريخية للمغول ممن عُرفوا بأسماء عدة منها التتر -التتار -المغول - المغل ، و هذه المسميات عُرف بها شعب واحد يتكون من قبائل متعددة يرجعون في اصولهم الى الاتراك قال عنهم الهمذاني "المفول و التتار قبيلتان اسويتان بدويتان كانت مساكنها وراء نهر جيحون و هما جيران الترك و اقاربهما".

و يصف السيوطي المغول "عراض الوجوه واسعوا الصدور خفاف الاعجاز ، صغار الاطراف ، سمر الالوان ، سريعوا الحركة ...".

و تُعد هضبة منغوليا بقسميها الجبلي و الصحراوي الموطن الرئيس لهذه القبائل و التي كانت تستقر في الشتاء بسهولها و مناطقها الدافئة لتوفر المراعي لحيوانتها ، اما في الصيف فكانت تستقر في المناطق المرتفعة و اعالي الجبال حيث انخفاض درجات الحرارة نسبياً و توفر المراعي و المياه.

تمتد منغوليا من اواسط اسيا جنوب سيبيريا و شمال التبت و غرب منشوريا و شرق تركستان بين جبال لتاي غرباً و جبال خنجان شرقاً و تنقسم منغوليا الى قسم شمالي غربي مرتفع تتخلله هضاب و وديان تغطيها الهضاب و القسم الاخر الجنوبي الشرقي منخفض يشمل صحراء جوبي.

يتميز مناخ هضبة منغوليا بقساوته و سرعة تغيره، فتارة ترتفع الحرارة فيه الى اقصاها و تنخفض احياناً اخرى الى اقصاها ، و يتميز كذلك بجفافه و قوة الرياح فيه و التي تلحق اضراراً كثيرة في المزارع و الحقول في كثير من الاحيان ، و تطرف مناخ هذه المناطق كان سبباً في قصر حياة النبات. و نتيجة لهذه البيئة القاسية التي نشأ فيها المغول ، مارس المغول مهنة الرعي الصيد ، و كانوا يتنقلون من مكان لآخر بحثاً عن الماء و الكلاً ، قال عنهم ابن الاثير "لا يُحرمون شيئاً فهم يأكلون جميع الدواب حتى الكلاب و الخنازير و غيرهم".

و كانوا يرتدون ملابس بسيطة مصنوعة من اصواف الاغنام او وبر الابل او من جلود الحيوانات ، و لم يلبسوا الحرير و الفراء الا في القرن 13م بعد ان صارت امبراطورية واسعة الارحاء . اما ديانتهم فلم يكن المغول يعتنقون ديناً سماوياً معيناً فديانتهم خليط من افكار و معتقدات إحادية خارجية عن اصول الديانات السماوية . اذ كانوا يعبدون الشمس و بعضهم يعبد النار و الاصنام و بعضهم لا دين له. فالمغول كانوا وثنيين و بقوا كذلك حتى اعتنقوا الديانة البوذية في القرن 16م.

*موقف الخلافة العباسية من الزحف المغولي:

ان اجتياح المغول لمدينة بغداد سنة 656هـ / 1258م ، يقع على عاتق و مسؤولية الخلفاء العباسيين ممن حكموا في تلك الفترة و لا نعني بذلك الخليفة المستعصم بالله وحده بل الخلفاء الذين سبقوه.

فيرى الباحثون و المؤرخون ان ذلك يعود الى ضعف الخلافة العباسية و ادارتها اكثر مما يعود الى قوة المغول و خططهم العسكرية ، اذ لم يتخذ الخلفاء الناصر و الظاهر و المستنصر اية اجراءات امنية تحد خطر المغول في سنة 616هـ ، و لم تتوحد جهودهم مع جهود امراء الاطراف في سبيل تعميق التعاون معهم عسكرياً و ادارياً لمواجهة المغول ، بل على العكس اشاعوا حالة من الشك فيما بينهم.

فالخليفة الناصر اثار امراء الاطراف ضد الخوارزميين كما و انهم جلال الدين منكبرتي الخليفة الناصر شخصياً بمراسلة المغول و اثارتهم ضد ابيه ، و رغم ان هذه الرواية ضعيفة الا انها تعد خطيرة للغاية ، و مهما يكن من الامر فأن سياسة الخليفة الناصر كانت سبباً في اضعاف الخوارزميين الذين كانوا بمثابة السد المنيع للدفاع عن الدولة العربية الاسلامية.

لذلك فالناصر يتحمل قسطاً كبيراً من المسؤولية بسبب الإهمال المتعمد او غير المتعمد اذ ساهم اهماله هذا في توفير الظروف الملائمة للمغول لغرض اجتياح بغداد، اما الخليفة الظاهر فكان حكمه لفترة قصيرة و لم يتيسر له الوقت الكافي للاستعداد للتصدي للمغول ..

اما الخليفة المستنصر بالله و رغم ن فترة خلافته كانت طويلة الا انه لم يتخذ اية استعدادات لمقاومة هذه الغزو ففي عهده سقطت الامارة الخوارزمية في سنة 628هـ ، و الغريب ان الخلافة العباسية لم تدرك خطر سقوط الامارة الخوارزمية مثلما ادركها امراء الاطراف ، فالخليفة المستنصر لن يتخذ اجراءات معينة لتعبئة الجيش وان امتلك الاموال الكافية لذلك ، بل كانت سياسته تقوم على اساس المهادنة و عقد المعاهدات.

اما اخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله ، فقد كان من اكثر الخلفاء ضعفاً و اكثرهم تهاوناً و اقلهم حذراً بل انه لم يكن مؤهلاً للخلافة في وسط هذه الظروف الصعبة.

اما الجيش العباسي فقد كان مهملأ ، فقد كان المماليك الاتراك في بغداد مسيطرون عليه و يتمتعون بأقطاعات واسعة و كان يترأسهم انذاك مجاهد الدين ايبك الدويدار الصغير و الذي كان يكن كل العداء للوزير مؤيد الدين ابن العلقمي ، كل هذه الفوضى دفعت الكثير من اللصوص الى احداث الفوضى في البلاد من خلال النهب و السلب و القتل .

و مما زاد الاوضاع سوءاً هو التدهور الاقتصادي الذي كانت تعاني منه البلاد في العصور العباسية المتأخرة، فضلاً عن الكوارث الطبيعية كالفيضانات و سقوط الثلوج و انقطاع المطر و تدمير الحقول بسبب الضرر التي لحقت بها نتيجة الآفات كالجراد و غيره، و هذا الامر دفع بالعديد من سكان اطراف بغداد الى الهجرة منها الى بغداد مركز الخلافة و كل هذا سبب الى انتشار الامراض و المجاعات و ارتفاع الاسعار و فضلاً عن ذلك كله، فإن امراء الاطراف كالخوارزميين في المشرق و الايوبيين في المغرب و الاتابكة في الشام و الجزيرة الفراتية كلهم يتحملون المسؤولية ايضاً في غزو المغول لبغداد .

كل هذه الظروف المضطربة ساعدت المغول على تنفيذ مخططهم لاحتلال بغداد لذلك . فقد بدأ المغول بأرسال رسلهم الى الخلافة العباسية منذ عام 635هـ و حتى استلام هولاءكو قيادة الجيوش المغولية المتوجهة لاحتلال بغداد ، حيث بدأ نشاطه العسكري في مدينة كش الواقعة جنوب غربي سمرقند فقد بعث برسالة الى الخليفة المستعصم سنة 653هـ طالباً فيها منه بأرسال لجيش العباسي لمساعدتهم في السيطرة قلاع الاسماعيلية ، الا ان الخليفة رفض ذلك فبعث له هولاءكو رسالة ثانية سنة 656هـ معاتباً اياه على عدم مساعدته له ، و هددته باجتياح بغداد والانتقام من الخليفة .